

القرون إلى زماننا هذا في العرب والمعجم وسائر صنوف بني آدم ، وقد قال الخليل عليه السلام في دعائه ﴿واجنبي وبني أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيرا من الناس﴾ وقوله تعالى : ﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالا﴾ دعاه منه على قومه لتبردهم وكفرهم وعنادهم كما دعا موسى على فرعون ومثله في قوله ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاء به .

مِمَّا حَطَّتْ بِهِمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا أَفْجَارًا كَفَارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَابَارًا ﴿٢٨﴾

يقول تعالى : ﴿مما حطيتاهم﴾ وقرئ خطاياهم ﴿أغرقوا﴾ أي من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿أغرقوا فأدخلوا نارا﴾ أي نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا﴾ أي لم يكن لهم معين ولا معيث ولا مجبر ينقذهم من عذاب الله كقوله تعالى : ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ ووقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾ أي لا تترك على وجه الأرض منهم أحدا ولا ديارا وهذه من صيغ تأكيد النفي ؛ قال الضحاك : ديارا واحدا ، وقال السدي : الديار الذي يسكن الدار ، فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه ، وقال : ﴿سأوي إلى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينها الموج فكان من المغرقين﴾ وقال ابن أبي حاتم : قرأ علي بن يوسف بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني شبيب بن سعيد عن أبي الجوزاء عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ ولو رحم الله من قوم نوح أحدا لرحم امرأة لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها ، فلورحم الله منهم أحدا لرحم هذه المرأة هذا حديث غريب ورجاله ثقات ، ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح عليه السلام وهم الذين أمره الله بحملهم معه .

وقوله تعالى : ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحدا أضلوا عبادك ، أي الذين تخلفهم بعدهم ﴿ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا﴾ أي فاجرا في الأعمال كافر القلب وذلك لخبرته بهم ومكته بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم قال ﴿رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين﴾ قال الضحاك : يعني مسجدي ، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن ، وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، أنبأنا سالم بن غيلان أن الوليد بن قيس ، أخبره أنه سمع أبا سعيد الخدري أو عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لا تصحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي ، ورواه أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن المبارك عن حيوة بن شريح به ، ثم قال الترمذي : إنما نعرفه من هذا الوجه . وقوله تعالى : ﴿وللمؤمنين والمؤمنات﴾ دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات وذلك يعم الأحياء ، منهم والأموات ، ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح عليه السلام وبما جاء في الآثار والأدعية المشهورة المشروعة ، وقوله تعالى : ﴿ولا تزد الظالمين إلا تبارا﴾ قال السدي : إلا هلاكاً ، وقال مجاهد : إلا خسارا أي في الدنيا والآخرة . آخر تفسير سورة نوح عليه السلام ، والله الحمد والمنة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنَكَ أَنَّا عَجَبًا ﴿١﴾ هَدَىٰ إِلَى الرُّشْدِ فَتَأْتِيهِمْ وَاوَّلَ نُشْرٍ لَّ بَرِيئًا أَحَدًا ﴿٢﴾

وَأَنَّهُمْ عَلَىٰ جَدِّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَنْجِبَةً وَلَا وِلْدَانًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُمْ كَانَتْ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَىٰ اللَّهِ شَطَطًا ﴿٣﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَنَا الْقَوْلَ الْإِنْسِ
وَالْجِنُّ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا ﴿٤﴾ وَأَنَّهُمْ كَانُوا رِجَالًا مِّنَ الْإِنْسِ يَعُودُونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ فَرَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنَّ بَيْعَتْ

اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾

يقول تعالى أمرأ رسولهم ﷺ أن يخبر قومه أن الجن استمعوا القرآن ، فأمنوا به وصدقوه وانقادوا له ، فقال تعالى : ﴿قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً • يجدي إلى الرشده﴾ أي إلى السداد والنجاح ﴿فأما به ولن نشرك بربنا أحدا﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ وقد قدمنا الأحاديث الواردة في ذلك بما أغنى عن إعادته ههنا .

وقوله تعالى : ﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿جد ربنا﴾ أي فعله وأمره وقدرته . وقال الضحاك عن ابن عباس : جد الله الآؤه وقدرته ونعمته على خلقه ، وروي عن مجاهد وعكرمة : جلال ربنا ، وقال قتادة : تعالى جلاله وعظمته وأمره ، وقال السدي : تعالى أمر ربنا : وعن أبي الدرداء ومجاهد أيضاً وابن جريج : تعالى ذكره وقال سعيد بن جبير : ﴿تعالى جد ربنا﴾ أي تعالى ربنا ، فأما ما رواه ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عبدالله بن يزيد الكوفي ، حدثنا سفيان بن عمرو ، عن عطاء ، عن ابن عباس ، قال : الجد أب ولو علمت الجن أن في الأنس جدأ ما قالوا تعالى جد ربنا ، فهذا إسناد جيد ولكن لست أفهم ما معنى هذا الكلام ولعله قد سقط شيء والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولدا﴾ أي تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد ، أي قالت الجن : تنزه الرب جل جلاله حين أسلموا وأمنوا بالقرآن عن اتخاذ الصاحبة والولد ثم قالوا ﴿وأنه كان يقول سفيها على الله شططاً﴾ قال مجاهد وعكرمة وقاتة والسدي : ﴿سفيها﴾ يعنون إبليس ﴿شططاً﴾ قال السدي عن أبي مالك : ﴿شططاً﴾ أي جوراً ، وقال ابن زيد : أي ظليماً كبيراً ويحتمل أن يكون المراد بقولهم سفيها اسم جنس لكل من زعم أن الله صاحبة أو ولداً ، ولهذا قالوا ﴿وأنه كان يقول سفيها﴾ أي قبل إسلامه ﴿عل الله شططاً﴾ أي باطلاً وزوراً ، ولهذا قالوا ﴿وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذباً﴾ أي ما حسبنا أن الإنس والجن يتأثون على الكذب على الله تعالى في نسبة الصاحبة والولد إليه ، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك .

وقوله تعالى : ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾ أي كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها ، كما كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن أن يصيبهم بشيء يسوءهم ، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته ، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً أي خوفاً وإرهاباً ودعراً حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوداً بهم ، كما قال قتادة ﴿فزادوهم رهقاً﴾ أي إثماً وازدادت الجن عليهم جراءة . وقال الثوري عن منصور عن إبراهيم ﴿فزادوهم رهقاً﴾ أي ازدادت الجن عليهم جراءة . وقال السدي : كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضرب أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي ، قال قتادة : فإذا عاذ بهم من دون الله رهقتهم الجن الأذى عند ذلك .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا أبي ، حدثنا الزبير بن الخريت عن عكرمة قال : كان الجن يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد ، فكان الإنس إذا نزلوا وادياً هرب الجن فيقول سيد القوم نعوذ بسيد أهل هذا الوادي ، فقال الجن نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم فلنؤمن من الإنس فأصابوهم بالخبيل والجنون ، فذلك قول الله عز وجل ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾ أي إثماً . وقال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم ﴿رهقاً﴾ أي خوفاً وقال العوفي عن ابن عباس ﴿فزادوهم رهقاً﴾ أي إثماً ، وكذا قال قتادة وقال مجاهد : زاد الكفار طغياناً .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا فروة بن المغراء الكندي ، حدثنا القاسم بن مالك - يعني المزني - عن عبد الرحمن بن إسحاق عن أبيه عن كردم بن أبي السائب الأنصاري قال : خرجت مع أبي من المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة ، فأوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعي فقال :

يا عامر الوادي جارك ؛ فنادى مناد لا نراه يقول : يا سرحان أرسله . فأتى الحمل يشد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة . وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾ ثم قال : وروي عن عبيد بن عمير ومجاهد وأبي العالية والحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي نحوه وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل ، وهو ولد الشاة ، كان جنياً حتى يهرب الإنسي ويخاف منه ، ثم رده عليه لما استجار به ليضله ويهينه ويخرجه عن دينه والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿وأهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً﴾ أي لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً ، قاله الكلبي وابن جرير .

وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَمَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشَهَابًا ﴿١٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ

يَجِدْ لَهُ مِنْهَا بِأَرَصَدًا ﴿١٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿٢٠﴾

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً وحفظت من سائر أركانها ، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن . فيلقوه على السنة الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدري من الصادق ، وهذا من لطف الله تعالى بخلقه ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز ، ولهذا قال الجن ﴿وأننا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباباً﴾ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً أي من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً رصداً له لا يتخطه ولا يتعداه بل يحقه ويهلكه . ﴿وأنا لا ندري أشر أريد يمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾ أي ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء ، لا ندري أشر أريد يمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ، وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل والخير وأضافوه إلى الله عز وجل .

وفد ورد في الصحيح «الشر ليس إليك» وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك ، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان ، كما في حديث العباس : بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ رمى بنجم فاستنار فقال «ما كنتم تقولون في هذا؟» قلنا : كنا نقول يولد عظيم ، يموت عظيم فقال «ليس كذلك ، ولكن الله إذا قضى الأمر في السماء وذكر تمام الحديث وقد أوردناه في سورة سبأ بتامه ، وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاريها ، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة ، فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء ، فأمن من آمن منهم وتمرد في طغيانه من بقي كما تقدم حديث ابن عباس في ذلك عند قوله في سورة الأحقاف ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ الآية .

ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر ، وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها ، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا بذلك ، وظنوا أن ذلك لخراب العالم ، كما قال السدي : لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون في الأرض نبي أو دين لله ظاهر ، فكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا ، يستمعون ما يحدث في السماء من أمر ، فلما بعث الله محمداً ﷺ نبياً رسولاً رجوا ليلة من الليالي ففرغ لذلك أهل الطائف فقالوا : هلك أهل السماء لما رأوا من شدة النار في السماء واختلاف الشهب ، فجعلوا يعتقون أرقاءهم ويسبون مواشيهم ، فقال لهم عبد ياليل بن عمرو بن عمير : ويحكم يامعشر أهل الطائف أمسكوا عن أموالكم وانظروا إلى معالم النجوم ؛ فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهل السماء ، وإنما هذا من أجل ابن أبي كبشة يعني محمداً ﷺ ﴿وإن نظرتم فلم تروها فقد هلك أهل السماء ، فنظروا فأروها فكفوا عن أموالهم ففرغت الشياطين في تلك الليلة ، فأتوا إيليس فحدثوه بالذي كان من أمرهم فقال : اتنوني من كل أرض بقبضة من تراب أسمها ، فأتوه فشم فقال : صاحبكم بمكة ، فبعث سبعة نفر من جن نصيبين فقدموا مكة فوجدوا نبي الله ﷺ قائماً يصلي في المسجد الحرام يقرأ القرآن ، فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى كادت كلالهم تصيبه ، ثم أسلموا فأنزل الله تعالى أمرهم على رسوله ﷺ ، وقد ذكرنا هذا الفصل مستقصى في أول البعث من (كتاب السيرة) المطول ، والله أعلم ، والله الحمد والمنة .

وَأَنَّا إِنَّمَا الصَّلَاحُونَ وَمَيَادُونُ ذَلِكَ كُنَّا طَرِيقَ قَدَدًا ﴿٢١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نَّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿٢٢﴾ وَأَنَا

لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَىٰءَ أَمْنَابِهِۦ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِۦ . فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ
فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُغْضَبْنَ عَلَيْكُمْ
وَلَا يَسْقِينَهُنَّ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِكُنْفُسِهِمْ فِيهِۦ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم ﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك﴾ أي غير ذلك ﴿كنا طرائق قديدا﴾ أي طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة ، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿كنا طرائق قديدا﴾ أي منا المؤمن وبنا الكافر . وقال أحمد بن سليمان النجاد في أماليه : حدثنا الحسن بن أسلم بن سهل بحشل ، حدثنا علي بن سليمان وهو أبو الشعثاء الحضرمي شيخ مسلم ، حدثنا أبو معاوية قال : سمعت الأعمش يقول تزوج إلينا جني فقلت له : ما أحب الطعام إليكم ؟ فقال الأرز ، قال : فأتيناها به فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحداً ، فقلت فيكم من هذه الأهواء التي فينا ؟ قال : نعم ، فقلت فما الراضفة فيكم ؟ قال : شرنا . عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزني فقال هذا إسناد صحيح إلى الأعمش ، وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة العباس بن أحمد الدمشقي قال : سمعت بعض الجن وأنا في منزل لي بالليل ينشد :

فلوب براها الحب حتى تعلقت
هيم بحب الله والله ربه
مذاهبها في كل غرب وشارق
معلقة بالله دون الخلائق

وقوله تعالى : ﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً﴾ أي نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا وأنا لا نعجزه في الأرض ، ولو أمعنا في الحرب فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا ﴿وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به﴾ يفتخرون بذلك وهو مفخر لهم وشرف رفيع وصفة حسنة ، وقولهم ﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾ قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : فلا يخاف أن ينقص من حسناته أو يجعل عليه غير سيئاته كما قال تعالى : ﴿فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ ﴿وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون﴾ أي منا المسلم ومنا القاسط ، وهو الجائر عن الحق الناكب عنه ، بخلاف المقسط فإنه العادل ﴿فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً﴾ أي طلبوا لأنفسهم النجاة ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾ أي وقوداً تسع بهم .
وقوله تعالى : ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً﴾ لفتنتهم فيه ﴿اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين : [أحدهما] وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ﴿لأسقيناهم ماء غدقاً﴾ أي كثيراً ، والمراد بذلك سعة الرزق ، كقوله تعالى : ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوهم ومن تحت أرجلهم﴾ وكقوله تعالى : ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ وعلى هذا يكون معنى قوله ﴿لفتنتهم فيه﴾ أي لختبرهم ، كما قال مالك عن زيد بن أسلم : لفتنتهم لتبليهم من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية .

[ذكر من قال بهذا القول] قال العوفي عن ابن عباس : ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة﴾ يعني بالاستقامة الطاعة ، وقال مجاهد ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة﴾ قال الإسلام ، وكذا قال سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعطاء والسدي ومحمد بن كعب القرظي ، وقال قتادة : ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة﴾ يقول لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا . قال مجاهد : ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة﴾ أي : طريقة الحق ؛ وكذا قال الضحاك واستشهد على ذلك بالآيتين اللتين ذكرناهما ، وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا في قوله ﴿لفتنتهم فيه﴾ أي لتبليهم به . وقال مقاتل : نزلت في كفار قريش حين منعوا المطر سبع سنين .

[والقول الثاني] ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة﴾ الضلال ﴿لأسقيناهم ماء غدقاً﴾ أي لأوسعنا عليهم الرزق استدراجاً ، كما قال تعالى : ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ وكقوله ﴿أعجبون أنما غدهم به من مال وبينن نساوع لهم في الخبرات بل لا يشعرون؟﴾ وهذا قول أبي مجلز لاحق بن حيد ؛ فإنه قال في قوله تعالى : ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة﴾ أي طريقة الضلالة ، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، وحكاه البغوي عن الربيع بن أنس وزيد بن أسلم والكلبي وابن كيسان وله اتجاه ، ويتأيد بقوله لفتنتهم فيه .
وقوله ﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً﴾ أي عذاباً مشقاً شديداً موجعاً مؤلماً ، قال ابن عباس ومجاهد

وعكرمة وفتادة وابن زيد : ﴿عذاباً صعداً﴾ أي مشقة لا راحة معها ، وعن ابن عباس : جبل في جهنم ، وعن سعيد بن جبير : بئر فيها .

وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدٌ ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْئَلُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَلَا قُلَّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى أمراً عباده أن يوحدوه في مجال عبادته ولا يدعى معه أحد ولا يشرك به ، كما قال فتادة في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ قال : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله ، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده . وقال ابن أبي حاتم : ذكر علي بن الحسين ، حدثنا إسحاق بن بنت السدي ، أخبرنا رجل ساه عن السدي ، عن أبي مالك أو أبي صالح ، عن ابن عباس في قوله ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا بيت المقدس . وقال الأعمش : قالت الجن : يا رسول الله ائذن لنا فنشهد معك الصلوات في مسجدك ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ يقول : صلوا لا تتخالطوا الناس . وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا مهران ، حدثنا سفيان عن إسحاق بن أبي خالد عن محمود عن سعيد بن جبير ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ قال : قالت الجن لنبي الله ﷺ كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن ناعون ؟ أي بعيدون عنك ، وكيف نشهد الصلاة ونحن ناعون عنك ؟ فنزلت ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ .

وقال سفيان عن خصيف عن عكرمة : نزلت في المساجد كلها ، وقال سعيد بن جبير : نزلت في أعضاء السجود ، أي هي لله فلا تسجدوا بها لغيره . وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح من رواية عبد الله بن طائوس عن أبيه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم : على الجبهة - أشار بيده إلى أنفه - واليدين والركبتين وأطراف القدمين» ، وقوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدٌ﴾ قال العوفي عن ابن عباس يقول لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه يتلو القرآن ودنوا منه ، فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه ﴿قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن﴾ يستمعون القرآن هذا قول ، وهو مروى عن الزبير بن العوام رضي الله عنه ، وقال ابن جرير : حدثني محمد بن معمر ، حدثنا أبو مسلم عن أبي عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم ﴿لما قام عبد الله يدعوه كادوا يركبونه عليه ليبدأ﴾ قال : لما رأوه يصلي وأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ، قال : عجبوا من طواعية أصحابه له قال : فقالوا لقومهم ﴿لما قام عبد الله يدعوه كادوا يركبونه عليه ليبدأ﴾ وهذا قول ثان وهو مروى عن سعيد بن جبير أيضاً ، وقال الحسن : لما قام رسول الله ﷺ يقول لا إله إلا الله ويدعو الناس إلى ربهم كادت العرب تلبد عليه جميعاً .

وقال فتادة في قوله ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدٌ﴾ قال : تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليظفوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه ، وهذا قول ثالث وهو مروى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقول ابن زيد ، وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله بعده ﴿قل إنما أدعوري ولا أشرك به أحداً﴾ أي قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليظفوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿إنما أدعوري﴾ أي إنما أعدد ربي وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿ولا أشرك به أحداً﴾ وقوله تعالى : ﴿قل إنني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً﴾ أي إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي وعبد من عباد الله ليس إلي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم ، بل المرجع في ذلك كله إلى الله عز وجل ، ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لا يجيره من الله أحد أي لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقادي من عذابه ﴿ولن أجد من دونه ملتحداً﴾ قال مجاهد وفتادة والسدي : لا ملجأ . وقال فتادة أيضاً ﴿قل إنني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً﴾ أي لا نصير ولا ملجأ وفي رواية : لا ولي ولا موئل .

ذلك كما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ قال : هي معقبات من الملائكة يحفظون النبي ﷺ من الشيطان حتى يتبين الذين أرسل إليهم ، وذلك حين يقول ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم . وكذا قال ابن أبي لجيج عن مجاهد ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ قال : ليعلم من كذب الرسل أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وفي هذا نظر . وقال البهوي : قرأ يعقوب ﴿ليعلم﴾ بالضم أي ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا . ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عز وجل ، وهو قول حكاة ابن الجوزي في زاد المسير ، ويكون المعنى في ذلك أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، ويكون ذلك كقوله تعالى : ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾ وكقوله تعالى ﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ إلى أمثال ذلك من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة ، ولهذا قال بعد هذا ﴿وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً﴾ . آخر تفسير سورة الجن ، وله الحمد والمئة .

سُورَةُ الْمِزْمَلِ

ترتيبها ٧٣

آياتها ٢٠

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار : حدثنا محمد بن موسى القطان الواسطي ، حدثنا معلى بن عبد الرحمن ، حدثنا شريك عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال : اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا : سمو هذا الرجل اسماً يصد الناس عنه ، فقالوا : كاهن . قالوا : ليس بكاهن . قالوا : مجنون . قالوا : ليس بمجنون . قالوا : ساحر . قالوا : ليس بساحر ؛ فضرق المشركون على ذلك فبلغ ذلك النبي ﷺ فتزمل في ثيابه وتدثر فيها . فأتاه جبريل عليه السلام فقال ﴿يا أيها المزمل﴾ ﴿يا أيها المدثر﴾ ثم قال البزار : معلى بن عبد الرحمن قد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه لكنه تفرد بأحاديث لا يتابع عليها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ قُلِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقِصَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا قَلِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّا نَشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل وهو التغطي في الليل وينهض إلى القيام لربه عز وجل كما قال تعالى : ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ولما رزقناهم يفتقون﴾ وكذلك كان ﷺ عمتلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل ، وقد كان واجباً عليه وحده كما قال تعالى : ﴿ومن الليل فتعجده به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ وههنا بين له مقدار ما يقوم فقال تعالى : ﴿يا أيها المزمل﴾ قم الليل إلا قليلاً ﴿قال ابن عباس والضحاك والسدي﴾ ﴿يا أيها المزمل﴾ يعني يا أيها النائم . وقال قتادة : المزمل في ثيابه . وقال إبراهيم النخعي : نزلت وهو متمزمل بقطيفة ، وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس ﴿يا أيها المزمل﴾ قال : يا محمد زملت القرآن وقوله تعالى : ﴿نصفه﴾ بدل من الليل ﴿أو انقص منه قليلاً﴾ أو زد عليه ﴿أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل لا حرج عليك في ذلك﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ أي اقرأه على تمهل فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره . وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه ، قالت عائشة رضي الله عنها : كان يقرأ السورة فيرتها حتى تكون أطول من أطول منها .